بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت . اللهم فاشهد ، فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . فانى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتى ... ألا هل بلغت . اللهم فاشهد .

« أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت . قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

(أجزاء من خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع) .

تمهيد

الجزائر

الجزائر هو الاسم الذى اختاره التاريخ ليدل على عاصمة من العواصم الإسلامية الكبرى ، واقعة على البحر الأبيض المتوسط ، كما يدل على قطعة مجيدة عزيزة من الوطن الإسلامى الفسيح ، الذى يمتد مستعرضاً على صدر الكرة الأرضية يحتل منها أجمل الأجزاء وأنبلها : جزء الصدر من الجسم ، الجزء الذى يمور بالحياة والإيمان والحب .

وإذا كانت الجزيرة العربية تمثل القلب من العالم الإسلامى ، فإن المشرق الإسلامى يكوّن الجانب الأيسر بيده القابضة ، والمغرب الإسلامى يكوّن الجانب الأيمن بيده الباطشة .

وإذا كانت كلمة الجزائر إنما أطلقت على هذه العاصمة ثم على هذه الحلقة من السلسلة الرابطة بين أجزاء وطن أمة محمد ﷺ ، فى عصور متأخرة . فإن مواقف الإسلام فيها فى هذا العصر ومحاربته للبغى والعدوان والاستعمار قد أكسب هذا الاسم مجداً قلما ناله بلد فى العصر الحاضر ، ولا غرابة فى ذلك فإن الجزائر تمثل الساعد اليمنى الباطشة للأمة الإسلامية الناهضة .

ومن أجل ذلك فمن تحصيل الحاصل أن يقوم اليوم كاتب ليعرف بالجزائر ، ويقول للناس : إنها البلاد الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرق المغرب الأقصى وغرب تونس وليبيا وشمال الصحراء الكبرى فإن الكفاح الذى قامت به الجزائر فى سبع سنوات متلاحقات حطمت فيها أسطول أعظم دول العالم مجتمعة فى ميثاق الحلف الأطلسى جعلها تحتل مكان الصدارة فى تاريخ النضال للعصر الحديث . وجعلها على موضع من العظمة يراها فيه كل الناس ويعرفونها .

ولقد رأيت أن أفتتح هذا الكتاب بهذا العنوان ، لا لأننى أريد أن أتحدث عن الجزائر العاصمة فإنها غنية عن حديثى ، ولا عن تاريخ الوطن الجزائرى فى العصر الحاضر ، فقد كتبه أهله بالدم والرصاص فى حين تكتب بعض البلاد الأخرى تاريخها الحاضر بالزور والبهتان وبالدعوى العريضة الكاذبة . وبالتهرب من مجابهة المسئولية فى وضوح وبالفرار من تحمّل تبعاتها تحمّل الصبور الواثق المستعد .

فى هذا الوطن الإسلامى المجيد عاشت مجموعة من الطوائف الإسلامية فى مختلف العصور ، منتظمة تحت لواء واحد ، ودولة واحدة حيناً ، ومتفرقة تحت عدد من الدول أحياناً ، ومتعاونة متفاهمة متحدة فى فترات ، وقد يقع بينها أو بين بعضها ، ما يقع بين الإخوة من حدة النقاش وسوء التفاهم ، وبواعث الخصومة، ولكنها فى جميع تلك الأحوال بدولها المختلفة ، وبمذاهبها المختلفة ، وبما يقع فيها من أحداث الاختلاف والاتفاق ومظاهرها ، كانت تمثل الأمة المسلمة الحريصة على إسلامها المعتزة بدينها المحافظة عليه فى إخلاص وحرص واعتزاز .

وفى هذه الحلقة من هذا الكتاب أريد أن أتحدث عن فرقة من الفرق الإسلامية عاشت فى هذه المغانى التى نسميها اليوم الجزائر وكانت تسمى ـ المغرب الأوسط ـ بما فيها من مد وجزر إلى الشرق أو الغرب. ولاتزال تلك الفرقة تعيش وتكوّن عنصراً هاماً من عناصر الأمة المسلمة التى نرجو أن يتاح لها العودة إلى مكانها الطبيعى من قيادة البشرية إلى سلوك المنهج الذى اختاره الله لها ودعاها إلى السير فيه .

هذه الفرقة هى فرقة الإباضية وقد يسر الله ـ وله الحمد والمنة ـ لى أن

تحدثت عن الإباضية فى ليبيا وفى تونس بما قد يكون القارىء الكريم قد رآه وقرأه. وفى هذا الجزء سأحاول ـ بحول الله وقوته ـ أن أتحدث عن الإباضية فى الجزائر، سالكا نفس المسلك الذى سلكته من قبل. محاولا أن أضع أمام القارىء الكريم صوراً واقعية لحياة مجتمع إسلامى نظيف مستشهداً عليها بأحداث تاريخية من مصادر مختلفة خلال عشرة قرون، غير مهتم بالارتباط الزمنى للأحداث، لأننى كما ذكرت غير مرة لست كاتب تاريخ يتقصى الأخبار والأحداث والوقائع فى تتابعها الزمنى وإنما أنا أعرض صور حياة متكاملة لمجموعة من الناس كانت تعيش مع امتدادها الزمنى. ولذلك فقد يستدعينى عرض صورة من الصور أن أعرض بعض ما يتعلق بها من أشخاص أو أحداث من عدة جوانب فيظنها بعض الناس إعادة وتكراراً. وقد أهمل بعض الأحداث والأشخاص الذين أعتقد أن الصور التى أردت عرضها تتم بدونهم فيرى بعض الناس ذلك تقصيراً وإهمالا. ويحسبون أننى أطنب فى مكان لا يحتاج إلى الإطناب وأوجز فى مكان ينبغى فيه الإسهاب. وليس ذلك كما ظنوا لأن المهم عندى أن تكون الصورة التى أردت عرضها ـ عن واقع حياة زاخرة ـ واضحة من جميع جوانبها وزواياها، وأن تكون الحقيقة التى درستها وعرفتها، واقتنعت بصحتها جلية مفهومة.

ولقد قسمت الكتاب إلى خمسة أبواب كل باب تجتمع فيه مجموعة من الصور يضمها إطار واحد لمشهد من المشاهد التى أردت عرضها على القارىء الكريم.

فى الباب الأول عرضت مجموعة من الصور عن الدولة الرستمية تكوّن

لها مشهداً عاماً فى إطار واحد يبرز سيرة تلك الدولة وأسلوب حياتها كما يبرز سيرة وأسلوب حياة الإباضية فى تلك الفترة .

وفى الباب الثانى عرضت مجموعة من الشخصيات العلمية والاجتماعية ونماذج من نشاطهم لأعطى مشهداً عاماً فى إطار واحد لحياة علمية واجتماعية استمرت مترابطة عشرة قرون أو مايزيد ينبنى بعضها على بعض .

وفى الباب الثالث رأيت أن أجمع صوراً مختلفة تصور جوانب مختلفة أضعها تحت إطار واحد ينتقل فيها النظر بين مشهد ومشهد وهى بالنظرة المجزأة تبرز مناظر متعددة منفردة ولكنها بالنظرة الفاحصة الكلية تبدو منسجمة مع الصورة الكاملة التى وضع من أجلها الكتاب . وتملأ الفراغات التى بقيت بين الفصول وتربط بين الصور والمشاهد . ولا يتم المنظر العام الذى نريد رسمه للإباضية فى الجزائر خلال وجودهم بها منذ الفتح الإسلامى إلى اليوم إلا بهذه الصور المتناثرة التى جمعناها فى مشهد واحد من الباب الثالث .

وفى الباب الرابع تحدثت عن عدد من المدن التى كانت أو لا تزال عامرة بالإباضية محاولا أن أعرض صورة قريبة من الحقيقة لتلك الحياة الزاخرة بما فيها من مرارة أحياناً ، وإشراق وهناء أحياناً أخرى على أساس المبدأ الذى اتخذته وأعلنته فى غير مكان من أن تاريخ الأمم والشعوب ليس هو ما تحققه أو تقوم به رغبات السلاطين والحكام والجيوش وإنما هو سلوك الأفراد النابع من ذواتهم دون سياط تلهب ظهورهم أو عطايا يتحلب عليها ريقهم . ولا يلتقى تاريخ الأمة والدولة إلا فى حالة واحدة وذلك عندما

تكون الدولة سائرة فى المنهج الذى رسمته شريعة الله سيراً حقيقياً لا مكر فيه ولا خداع .

وفى الباب الخامس أوردت مجموعة من النقود والملاحظات ـ مما قيل فى صراحة ووضوح أو فى نوع من الغمغمة والخفاء ـ عن بعض أنواع سلوك المجتمع الإباضى فى جانب من جوانب الحياة أو فى فترة من تاريخهم بالجزائر. وأوردت إلى جانب تلك النقود صوراً من الرد على النقد المغرض، أو تصحيحاً لفهم النقد المخطىء ، أو تبريراً للمسلك الذى اتخذه ذلك المجتمع حسبما يراه . وجميع هذه الصور المتعارضة من النقد والرد تعطى مشهداً متكاملا يقوم مقام الرتوش الجانبية التى تكتمل بها الصورة أو التشطيبات الأخيرة التى يتم بها البناء كما يقول المهندسون والمقاولون .

وبعد هذا كله لا يخجلنى أبداً أن أقول إنما قدمت جهد الضعيف ودراسة القاصر ، ولبنة متواضعة فى بناء صرح شامخ . وإننى أعتذر إلى القارىء الكريم لما أخذت من وقته الثمين :

على أننى أضع ثقل المسئولية الكاملة على شبابنا الناهض الذى أتاحت له وسائل الدراسة الحاضرة كل الإمكانيات ، فاستطاع أن يستكمل دراساته الجامعية ، وتخصصاته فى الميادين العلمية ، وعرف طرق البحث العلمى ، والتأليف المنهجى . وزودته الدول والجامعات بكل ما يحتاج إليه من مصادر البحث والتنقيب ، ووسائل الانتقال والاتصال . فلم يبق له عذر . وقد توافرت لديه الدراسة التخصصية والمنهاج العلمى للبحث وفتحت له أبواب المكتبات بمختلف اللغات . وزود بما يحتاج إليه من وسائل الحصول على المواد العلمية من مصادرها المتفرقة .

وإلى أن يقوم شبابنا الناهض بهذا العبء الثقيل على أسلم الوجوه نرى ـ نحن الذين تسلمنا أمانة الدين والتاريخ من الجيل الذى سبقنا ـ أنه من واجبنا الحتمى أن نزود القارىء الكريم المتعطش ، بمجهوداتنا الهزيلة ، ترطيباً للهجة وإن لم نرو الغليل ، ومساعفة فى إحضار الدواء وإن لم نشف العليل، وإفادة بما عندنا من نزر قليل ، حتى يحضر ما عندهم من جم جليل .

والله المستعان وهو نعم الوكيل ؟

opeikandl.com